إسهامات الحركة العمالية في بلورة الوعي الوطني التحرّري ما بين 1936 و 1939

أ. محمد قنانش جامعة سيدي بلعباس

مقدمـــة:

يمثل العمال في مختلف مواقعهم المهنية والحرفية القوة الحية للمجتمع الأهلي في الجزائر المستعمرة , لكونهم يشكلون الطاقة المحركة للنشاط الاستثماري والمنتجة للتراكم الرأسمالي الكولونيالي من جهة , والقدرة البشرية المعبرة عن تطلعات المجتمع المحلّي ومشاكله المختلفة من جهة أخرى .

على هدا الأساس ، لعب العمال الجزائريون في المستعمرة عموما وفي القطاع الوهراني خصوصا دورا رائدا في بناء رصيد النضال الوطني ضد الاحتلال.

تفرعت مساهمة الفئة العمالية في كفاحها السلمي التحرري إلى جبهتين هما: الجبهة الاجتماعية التي خاضوا خلالها نضالا مطلبيا مريرا وشاقا يستحق في نظرنا كل الإشادة و التنويه ، جسدته حركة المظاهرات والمسيرات والتجمعات والإضرابات من أجل استرداد حقوق الشغيلة وكرامة الجماهير الكادحة . تضاعفت جهودهم في النقابات المتواجدة بالمستعمرة أما الجبهة الأخرى فإنها الجبهة السياسية التي لم يغب عنها العمال حيث برهنوا على نشاطهم القوي و حضورهم الواسع بنضالاتهم المستمرة داخل الأحزاب الوطنية ، بداية من نجم شمال إفريقيا سنة 1926 و دورهم الطلائعي في الحزب الشيوعي الفرنسي و الحزب الشيوعي الجزائري سنة 1936 و حزب الشعب الجزائري سنة 1937 إلى غاية قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1939 . هذه الشريحة البشرية الحية في المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي هي الدعامة الأساسية التي بني عليها المطلب الوطني من خلال العمل النقابي و الذي أخرج إلى السطح تجاوزات التسلط الكولونيالي و جرائمه في حق الشغيلة الجزائرية.

العمال الجزائريون و مسيرة المخاض السياسي

أسّس العمال الجزائريون حزب نجم شمال إفريقيا في بلاد المهجر فرنسا في 26 جوان 1926، و ناضلوا فيه بلا انقطاع من أجل نصرة المطالب الوطنية العّمالية في إطار الشمال الإفريقي الموحد . وبعد جهود مضنية و بعد عمليات المتابعة و التضييق التي واجهها النجم في فرنسا ، تمكّن العمال من أخد المبادرة لإنشاء فرع للنجم في تلمسان ضمّ " أحمد حلّوش" و" الغوثي بن شوك" و" بومدين معروف".1 طالب النجميون إلغاء قانون الانديجينا الجائر و حق الانتخاب و الترشح و التعليم الإجباري ، و حرية تنقل العمال إلى فرنسا و تطبيق التشريعات الاجتماعية على الأهالي . و في 28 ماي 1933 ، قدم النجم برنامجه الموسّع ضمنه المطالب السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . ظهرت قوة هذا الحزب في مصداقية مطالبه و نظرته الواقعية لظروف المجتمع الجزائري كما نتصوّر لذلك استلهم النجم الإفريقي روحه النضالية من انشغالات العمال ، فمكنه هذا الأمر من توسيع شعبيته في مدن القطاع الوهراني مطلع شهر مارس1937 . امتدّت فروعه في معسكر ، سيدي بلعباس ، تلمسان ، مستغانم ، سبدو وهران و مغنية .2 إن المطالب الاجتماعية و المهنية في كرّاسة الإضرابات مدركة للواقع العمالي مما يثبت أرضية الكفاح المشترك و الموحد بين العمل النقابي و النشاط الحزبي . إن التركيز على تطبيق التشريعات الاجتماعية و حق الضمان الاجتماعي و صندوق البطالة و قانون 40 ساعة عمل و حماية الطفولة و الصحة و ترقية ملف الأجور كلّها انشغالات ذات دلالات مشتركة .

يتعيّن على المرء مدى المجهود العمالي المبذول في مسيرة النضال الوطني كحركة اجتماعية سلمية لمقاومة الاحتلال و اختراقاته لحقوق العمال والإنسان . في هذا المجال ، بات من الواضح أن الحركة الوطنية الجزائرية استمدّت شعلتها التحررية من إرادة العمال المهاجرين الذين حدّدوا في مسيرتهم السياسية مفهوم السيادة الصحيح الذي لا يكون سوى بالاستقلال.اصطبغت الحركة الوطنية بالصبغة العمالية و أصبحت تمثل الطبقة الشغيلة المهاجرة التي نقلت نشاطها فيما

بعد إلى الجزائر المستعمرة في منتصف الثلاثينيات. 3

من هذه الزاوية ، يمكن اعتبار أن الحركة العمالية هي مولد الحركة الوطنية التحررية ، بدليل أن مصالى الحاج و غيره كان عاملا نقابيا و مناضلا نجميا ورائدا من رواد الاتجاه الاستقلالي في الجزائر حيث تجلّى نشاطه الدؤوب في حزب الشعب الجزائري .

من ناحية أخرى ، فإننا نعتقد إن حركة الإضرابات التي عرفها وعاشها القطاع الوهراني سنة 1936 و 1937 ، قد أعطت الرؤية النضالية التحررية للجزائر و صبغتها بالصبغة العمالية الاجتماعية . إن النقابية الجزائرية مدرسة جماهيرية نضالية ، غدت الحركة الوطنية و الأحزاب الجزائرية بالأطر النقابية التي تحملت عبء الكفاح و مشعل الحرية و التضحية.

تبنّي النقابيين الجزائريين للقضية الجزائرية و التحرر الوطني

طوال مسيرتهم المطلبية ، حمل العمال لواء الكفاح الاجتماعي ضد المحتل فتبنوا المطالب الوطنية بطرح انشغالاتهم داخل الأحزاب . في هذا الشأن تغذّت الاتجاهات الوطنية من صميم و روح الحركة النقابية العمالية .

يعدّ "حاج علي عبد القادر" من غيليزان و "مصالي الحاج" من تلمسان ،محمّد باتسي و "قدور بلقايم" و غيرهم ، من طينة النقابية الجزائرية التي أطّرت النضال الوطني التحرري داخل التشكيلات السياسية الجزائرية ، سواء تعلّق الأمر بنجم شمال إفريقيا والحزب الشيوعي الجزائري أو على مستوى حزب الشعب الجزائري . على هذا الأساس ، إنّ الحركة النقابية إطار جماهيري منظم ساهم في تكوين الوعي الطبقي و التأطير السياسي للطبقة العاملة الجزائرية فسمح ذلك بتكوين جيل من المناضلين. إن الاحتكاك اليومي للعمال بالجماهير الكادحة على أكثر من مستوى في الاجتماعات و المظاهرات ،مكنتهم من فهم انشغالات المجتمع الأهلي و إدراك متاعبه المهنية و الاجتماعية ، و نقل هذه المعاناة إلى الحركات الوطنية . أصبح النقابي" بوجلال" عضوا في الحزب الشيوعي الجزائري و قدّور بلقايم أمينا عاما بآرزيو في 15 يناير 1937 .4

انصبت جهود العمال نحو دعم الإضرابات و النقابات ، و برهنت مشاركاتهم في الحركة المطلبية ، على توثيق دابر العرى بين المطالب الوطنية و الاجتماعية من خلال إستراتيجية موحّدة الهدف ترمي إلى مقاومة التسلط الاستعماري و التمايز الاجتماعي الموجود بين العامل الجزائري و نظيره الأوربي .

في مطلع سنة 1938 ، أخذ على عاتقه اتحاد النقابات بسيدي بلعباس جملة من المطالب الوطنية، تركزّ بعضها على مكافحة البطالة و صيانة السلم الاجتماعي حيث وقع على بيان هذه المطالب الشيخ الإبراهيمي، و النقابي "محمد باتسي" و"قدور بلقايم" و هما عنصريين في الحزب الشيوعي الجزائري. من هذا المنطلق يبرز الوعي النقابي الذي تبلور عند الطبقة العاملة، وتجسّد في العلاقة العضوية والجدلية بين العمل المطلبي و العمل السياسي، كشرطين متكاملين يخدمان القضية الوطنية في بعدها الطبقي و الإيديولوجي.

استطاعت الشغيلة الجزائرية إثبات وجودها في الحركة الوطنية مند سنوات لتتبوأ مكانتها ضمن الرصيد الوطني التحرري . يظهر هذا الرصيد في تأسيس العمال الجزائريين أول تنظيم سياسي في المهجر ، يتمثل في ميلاد نجم شمال إفريقيا سنة 1926 بفرنسا ، و الذي عكس بحق مدى النضج السياسي الكبير للطبقة العاملة . تنامي هذا النضج بيقظة العمال السياسية ، عند رفضهم مشروع "بلوم فيوليت" الذي منح حق المواطنة الفرنسية لنخبة من الجزائريين لا يتعدى عددهم 21 ألف جزائري يتساوون في الحقوق مع الفرنسيين ، و أقصى مشروع العمال الكادحين من هذا الحق الطبيعي . نظرا للتوجهات التحررية للحزب ، أقدمت الجبهة الشعبية على حل النجم في 27 يناير 1937. تعاظم شأن العمال بما قدمته الحركة العمالية من جهود و تضحيات . والحركة النقابية في نظرنا مدرسة نضالية تخرجت منها شخصيات وطنية في قمة النضج السياسي والوعي القومي مثل "حاج علي عبد القادر" الذي كان تاجرا في غيليزان ومناضلا متميّزا في الحزب الشيوعي و "معروف محمد" الذي مارس النقابة في الشلف و كلّهم كانوا سابقا أعضاء بارزين في نجم شمال إفريقيا ومناضلين في الحزب. الشيوعي الفرنسي . 5

استمدت الحركة الوطنية نشاطها من التجربة العمالية التي ولّدها و نمّاها العمل النقابي ، مما كان له الفضل الكبير في بعث حركة ثورية في غضون عقد الثلاثينيات في الجزائر المستعمرة عموما و القطاع

الوهراني على وجه الخصوص ، انغرس مفعولها في أوساط الشباب من الحرفيين والعمال والبطالين. إن الطبقة العاملة بدورها الريادي أرست قواعد إستراتجية جديدة لماهية النضال الوطني في بعده التحرري الاجتماعي كأرضية أولية مهّدت الطريق للمسيرة الثورية الشاملة .هدا التطور المنهجي المنظم لمبدأ التحرر في صبغته الاجتماعية يراه البعض مصدرا لاسترجاع السيادة الكاملة المنتظرة من وجهة نظر الشيوعيين الفرنسيين .6 انخرط العديد من العمال النقابيين في الحزب الشيوعي الذي تأسس في 17 أكتوبر سنة 1936 و أصبح 10 أعضاء يمثلون لجنته المركزية في عمالة وهران. استلهم هذا الحزب مطالبه من الطبقة العاملة و الحركة النقابية حيث نلمس ذلك في القرارات المتخذة من قبل مكتبه السياسي في 9 يناير 1939 ركّز فيها على تحسين أجور العمال الزراعيين و تطبيق المساواة بين العمل والأجر وإلغاء نظام الخماسة و قانون الأنديجينا و مرسوم رينيي (REIGNIER) والعفو عن العمال المضربين المفصولين عن عملهم 7 تظهر هذه الانشغالات التأثير القوي للطبقة الشغيلة على توجيه الحركة الوطنية في الإقليم الغربي . إنّ المطالب العمالية الخاصة بالقطاع الزراعي أكّدت عليها الفروع النقابية التي أسسها محمد باتسي سنة 1937 في عين تموشنت ، المالح و بن باديس و حمام بوحجر ، المحمدية ، مستغانم ، بني صاف و سفيزف.8

هذه النماذج من الأمثلة توضح لنا مدى تأثير النقابية الجزائرية في توجيه مقتضيات الحركة الوطنية الشيوعية بشقيها السياسي و الاجتماعي .

دفعت الظروف المزرية التي يعاني منها الأهالي في الريف إلى إثارة انتباه النخبة حيث صرح السيد تامزالي مقرر اللجنة الاقتصادية لغرفة التجارة وعضو في المفوضيات المالية قائلا:" ظروف الأهالي قي الريف مثيرة للقلق على عكس ما نراه في المدن من عيش رغيد ينعم به الأوربيين."9

البعد الوطني للحركة المطلبية النقابية الجزائرية

ترّكز نشاط النقابية الجزائرية على مبدأ المساواة و العدالة الاجتماعية ، كحق طبيعي مشروع يجب أن يحظى به العمال الجزائريون أمام نظرائهم الأوربيين و لكن هذا المطلب ظل دائما محل رفض شديد من قبل الكولون و ممثليه في مجلس شيوخ البلديات و اليمين الفرنسي المتطرف . من هذه الزاوية ، شكلّ هذا المطلب خطوة منطقية في تطور الحركة الوطنية.10 حازت المطالب الاجتماعية على النصيب الأكبر من جملة المطالب التي نادت بها الأحزاب الوطنية فعكست قضايا جوهرية استمدتها الاتجاهات السياسية من عمق العمل النقابي العمالي . في هذا الصدد أثار البيان المصادق عليه في الجمعية العامة لحزب الشعب الجزائري في 26 أوت 1937 جاء فيه ما يلي : الحق النقابي للعمال الزراعيين المراجعة العاجلة للأجور ، تشكيل هيئة خاصة بالمنازعات المهنية .

إن التشكيلات النقابية ، كانت باستمرار القوى الوطنية المقاومة للاستعمار كمصدر

ضغط في المدن و الأرياف ضد مصالح الاستيطان.11 و المطالب الاجتماعية التي جاءت بها إضرابات 1934 و 1936 ، تندرج في هذا الاتجاه لكونها استهدفت محاربة مظاهر الاستغلال المسلّطة على العمال في المدن و الفلاحين الأجراء الزراعيين في الأرياف . استهدفت هذه الإضرابات الاستيطان و إفرازاته ، فكانت

مطالبها تحررية مناهضة للاحتلال الأجنبي .12 استطاعت الحركة العمالية أن تجند الآلاف من العمال الجزائريين لتشكل بهم مدرسة تخرج منها مناضلون تحملوا عبء القضية الوطنية ، كما كشف العمل النقابي السياسة الاستعمارية في مجالها الاجتماعي و ما اقترفته تلك السياسة من استغلال للعمال، و ابتزاز لجهود الشغيلة الجزائرية. انعكست اليقظة العمالية الناضجة و المتجلية في الحركة الوطنية ، على نمو وعي عمالي انتفعت منه الأحزاب السياسية و انغرست معالمه في الصحافة الحزبية التي أثارت غضب الإدارة الاستعمارية التي قرّرت حلّ بعض الصحف الخاصّة بحزب الشعب الجزائري و الحزب الشيوعي الجزائري في 26 أوت 1936.13

كان تأثير الحركة العمالية واضحا في إنضاج الضمير الوطني الحرّ داخل الأحزاب و النقابات ، ضد تجاوزات الطبقة البورجوازية الاستعمارية مما يجعل المرء يكتشف بصمات العمال في توجيه الجهد الثوري الذي يتغذى منه النشاط الوطني المعادي للسيطرة الأجنبية. لذلك ، فان وظيفة الطبقة العمالية

الثورية تذهب إلى تجنيد الفئات المضطّهدة ضد البورجوازية الاستغلالية التي يمثلها النظام الكولونيالي .14 من هنا ، يترسّخ المفهوم التحرّري و يتجسّد في ذلك الترابط الوثيق و التداخل العميق بين نشاط النقابات العمالية في بعدها الاجتماعي المطلبي و الحركة الوطنية في عمقها النضالي التحرري . إن الاستعمار ظاهرة من التناقضات لا تعير أي اهتمام لسكان المستعمرات ، إذ أنّها تقوض مثلهم و قيمهم و إنسانيتهم على حساب تنمية التراكم الرأسمالي الذي تتحكّم فيه البورجوازية الكولونيالية . أفرز هذا التناقض المتجذر في ذهنية الاحتلال و سلوكياته الشاذة ردود فعل متنوّعة عمالية كانت و نقابية ، و منها السياسية الحزبية كذلك . إنهاء الظاهرة الاستعمارية هي فرصة عاكسة لظاهرة جديدة تدفع بلا شك إلى خلق آليات متجدّدة تغير من تداعيات الظاهرة السابقة 15.

تبرز في اعتقادنا هذه الظاهرة الجديدة ، ردود فعل وطنية حقيقية ضد الاستعباد في إطار مقاومة شاملة و جامعة بين مسيرة العمال و وتيرة النضال .

في الوقت الذي عرف فيه العمال اضطهادا مسّ نشاطهم النقابي،انقسمت الحركة الوطنية على نفسها. حصل هذا الانقسام في صفوف دعاة الإدماج حيث أسّس "محمد صالح بن جلول" التجمّع الفرنسي الإسلامي الجزائري (R.F.I.A) وأسّس "فرحات عباس" الإتحاد الشعبي الجزائري (U.P.A) في جويلية 1938.16

عشية الحرب العالمية الثانية ، مابين سنة 1938 و 1939 بدأت مشاعر اليأس و التذمر تهز نفسية الجزائريين و تخدش وجدانهم على نفس القدر عند عناصر النخبة الوطنية. إن حكومة الجبهة الشعبية اليسارية وعدت الكثير و لم تعط شيئا يذكر. شكلت سنة 1936 محطة حاسمة و نقطة تحول مثيرة في تاريخ الحركة العمالية الجزائرية لأنها رفعت من شأن الطبقة العاملة بما قدمته من جهد و تحدّ ضد الطغيان الرأسمالي . استطاع العمال الجزائريون فرض إرادتهم كقوة اجتماعية قادرة على تغيير ظروف وسطهم المهني ومستواهم المعيشي في إطار ديناميكية منظمة وجّهت الشغيلة الجزائرية وجهة اجتماعية تحرّرية مكّنت النقابية الجزائرية من التعبير عن وجودها و فرض ذاتيتها كحركة مطلبية ناضجة و مؤهلة للتكيف مع الواقع الاستعماري و قادرة في نفس الوقت على تغييره .

من هذا المنطلق ، اغتنمت النقابية الجزائرية فرصة مجيء الحكومة اليسارية في عهد الجبهة الشعبية ، لتعبر عن ذاتيتها بطرحها لمطالب الجماهير الكادحة والشرائح البائسة في إطار سلمي منظم تحت ظلال الكونفيدرالية العامة للشغل. أثمر العمل النقابي بتوثيق الصلة مع العمل السياسي ضمن هدف مشترك يجمع بين الجهد الاجتماعي التحرري ، و العمل السياسي النضالي . و لذلك تبوّأت النقابية الجزائرية مكانتها، بتعبئتها الفعلية للحركة العمالية المكافحة التي لا يمكن في رأينا فصلها عن فلسفة الحركة الوطنية الجزائرية المعاصرة في بعديها الاجتماعي المطلبي و السياسي التحرّري.17

من هذا المنظور يتعين علينا القول أن الحركة العمالية حركة تعبئوية للشرائح الاجتماعية و القوى الوطنية الحية في البلاد ، رسّخت مفهوم الوعي التحرّري في عمقه السلمي المطلبي . و زيادة على ما سيق ، فإن الحركة العمالية بنشاطها النقابي ، حركة احتجاجية ولّدت النقمة الشعبية المناهضة للواقع الاستعماري المرّ و بالتالي تعدّ ردّة فعل وطنية ضدّ سياسة الرأسمالية الكولونيالية .

و مهما يكون من أمر ، فإن الحركة الوطنية الجزائرية نهضة حضارية شاملة أغنت مجراها روافد كثيرة و متنوّعة ، كانت أولاها نشاطات النقابية الجزائرية مند أواخر القرن التاسع عشر ، ثمّ تلتها الحركة السياسية بدء بنجم شمال إفريقيا و الحركة الكشفية و الإصلاحية . و توّجت النقابية العمالية الجزائرية في نهاية المطاف بتأسيس المركزية النقابية الجزائرية يوم 24 فبراير 1956 ، التي زرع

بذورها النقابي الكبير قدّور بلقايم في الثلاثينيات و حمل رموزها و أوزارها البطل العظيم عيسات أيدير شهيد الثورة التحريرية المجيدة .

الهوامـــــــش:

(1) قنانش محمد ، نجم الشمال الإفريقي 1926 – 1937 ، د.م.ج ، الجزائر 1984 ، ص ص 95 – 96 .

(2) KADDACHE , T.(1) , ED, E.N.A.L , ALGER , 1993 , p 473 .

(3) قنانش ، الحركة الاستقلالية في الجزائر ، المرجع السابق ، ص 31

(4) ORAN PLICAIN , 27 DECEMBRE 937

(5) قنانش ، نجم الشمال الإفريقي ، المرجع السابق ص ص 78 – 79 .
(6) قنانش ، المواقف السياسية بين الإصلاح و الوطنية في فجر النهضة الحديثة ، .ش.و.ن.ت ، الجزائر 1982 ، ص ص102 - 103
(7) COLLOT (C) , HENRY , (J . R) , O P. CIT , p p 141 – 142 .
(8) شوكرون ، المرجع السابق ص 18 .
(9) ARCHIVES DE BENI – SAF , CHAMBRE DE COMMERCE , 21 SEPTEMBRE 1938 , BOITE N° 34 .
(10) سعد الله أبو القاسم ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، ج (1) ، ش.و.ن.ت ، الجزائر 1981 ص.57
(11) FANON (FRANTZ) , LES DAMNES DE LA TERRE , LIBRAIRIE FRANCIS MASPERO , PARIS 1968 , p p 73 – 74 .
(12) ABID (AHMED) , MOUVEMENT SYNDICAL ET LUTTES SOCIALES EN ORANIE 1942 – 1951 DOCTORAT 3EME CYCLE VOLUME (1) , ORAN , 1985 , p 117 .
(13) بوشيخي شيخ ، الحركة الوطنية و الثورة الجزائرية الكبرى 1954 – 1962 ، شهادة دكتوراه في التاريخ ، جامعة وهران 2003 ص 286 .
(14) MACCIOCCHI (MARIA ANTONIETTA) , POUR GRAMSCI , ED. DU SEUIL , PARIS , 1975 , p 138 .
(15) صديقي عبد الحميد ، تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادى ، دار القلم ، الكويت 1980 ، ص 64 .
(16) BENKHEDDA (BENYOUCEF) , LES ORIGINES DU 1ER NOVEMBRE 1954 , ED .DAHLEB ,ALGER ,1989 , p 6

(17) مداخلة الدكتور كريم ولد النبية في اليوم الدراسي حول نضال العمال و المزارعين ما بين 1919 و 1954 قسم التاريخ ، جامعة سيدي بلعباس ، 14 ديسمبر 2010